وضمير قال راجع إلى طالوت ولا يصح رجوعه إلى نبيهم لأنه لم يخرج معهم وإنما أخبر طالوت عن ا تعالى بأنه مبتليهم مع أنه لم يكن نبيا يوحى إليه : إما استناد الإخبار تلقاه من صموئيل وإما لأنه اجتهد أن يختبرهم بالشرب من النهر لمصلحة رآها في ذلك فأخبر عن اجتهاده إذ هو حكم ا في شرعهم فأسنده إلى ا وهذا من معنى قول علماء أصول الفقه إن المجتهد يصح له أن يقول فيما ظهر له باجتهاده " إنه دين ا " أو لأنه في شرعهم أن ا أوجب على الجيش طاعة أميرهم فيما يأمرهم به وطاعة الملك فيما يراه من مصالحهم وكان طالوت قد رأى أن يختبر طاعتهم ومقدار صبرهم بهذه البلوى فجعل البلوى من ا ؛ إذ قد أمرهم بطاعته بها وعلى كل فتسمية هذا التكليف ابتلاء تقريب للمعنى إلى عقولهم : لأن المقصود إظهار الاعتناء بهذا الحكم وأن فيه مرضاة ا تعالى على المتمثل وغضبه على العاصي وأمثال هذه التقريبات في مخاطبات العموم شائعة وأكثر كلام كتب بني إسرائيل من هذا القبيل والظاهر أن الملك لما علم أنه سائر بهم إلى عدو كثير العدد قوى العدد أراد أن يختبر قوة يقينهم في نصرة الدين ومخاطرتهم بأنفسهم وتحملهم المتاعب وعزيمة معاكستهم نفوسهم فقال لهم إنكم ستمرون على نهر وهو نهر الأردن فلا تشربوا منه فمن شرب منه فليس مني ورخص لهم في غرفة يغترفها الواحد بيده يبل بها ريقه وهذا غاية ما يختبر به طاعة الجيش فإن السير في الحرب يعطش الجيش فإن السير في الحرب يعطش الجيش فإذا وردوا الماء توافرت دواعيهم إلى الشرب منه عطشا وشهوة ويحتمل أنه أراد إبقاء نشاطهم : لأن المحارب إذا شرب ماء كثيرا بعد التعب انحلت عراه ومال إلى الراحة وأثقله الماء . والعرب تعرف ذلك قال طفيل يذكر خيلهم : .

فلما شارفت أعلام طي ... وطي في المغار وفي الشعاب .

سقيناهن من سهل الأداوي ... فمصطبح على عجل وآبى يريدأن الذي مارس الحرب مرارا لم يشرب ؛ لأنه لا يسأم من الركض والجهد فإذا كان حاجزا كان أخف له وأسرع والغر منهم يشرب لجهله لما يراد منه ولأجل هذا رخص لهم في اغتراف غرفة واحدة .

والنهر بتحريك الهاء وبسكونها للتخفيف ونظيره في ذلك شعر وبحر وحجر فالسكون ثابت لجميعها .

وقوله (فليس مني) أي فليس متصلا بي ولا علقة بيني وبينه وأصل " من " في مثل هذا التركيب للتبعيض وهو تبعيض مجازي في الاتصال وقال تعالى (ومن يفعل ذلك فليس من ا في شئ) وقال النابغة : .

إذا حاولت في أسد فجورا ... فإني لست منك ولست مني وسمى بعض النحاة " من " هذه بالاتصالية . ومعنى قول طالوت " ليس مني " يحتمل أنه أراد الغض عليه والبعد المعنوي ويحتمل أنه أراد أنه يفصله عن الجيش فلا يكمل الجهاد معه والظاهر الأول : لقوله " ومن لم يطعمه فإنه مني " لأنه أراد به إظهار مكانة من ترك الشرب من النهر وولائه وقربه ولو لم يكن هذا مراده لكان في قوله (فمن شرب منه فليس مني) غنية عن قوله (ومن لم يطعمه فإنه مني) لأنه إذا كان الشارب مبعدا من الجيش فقد علم أن من لم يشرب هو باقي الجيش